

التطور الاجتماعي وتأثيره على التطور الدلالي
تطبيق على ألفاظ القرآن المكي والمدني
[دراسة لفظية وصفية]

*Semantic Development, Application of words From
the Mecca's and Medina's Quran
(Descriptive Language Study)*

د. سميرة هاشم إبراهيم الحاج*، جامعة تبوك (السعودية)
selhaj@ut.edu.sa

تاريخ الإرسال: 2021/03/06 تاريخ القبول: 2021/04/29 تاريخ النشر: 2021/06/07

ملخص

عرضت هذه الورقة لمعنى الدلالة والتطور الدلالي في اللسانيات الحديثة، وتناولت أثر التغيرات الاجتماعية في تطور دلالات الألفاظ. ووقفت على التطور الذي حدث للألفاظ بعيد نزول القرآن في المجتمع المكي، حيث جاءت الألفاظ متناسبة وحالة المجتمع، ثم تطور دلالات ألفاظ القرآن الكريم الذي نزل بالمدينة، حيث ظهر هذا التطور على الألفاظ التي خاطبت إنسان المدينة المنورة في ذلك الوقت.

الكلمات المفتاحية: التطور، الدلالة، اللسانيات، ألفاظ القرآن، التغير الدلالي.

Abstract

This paper presented the meaning of semantics and semantic development in modern linguistics by the effect of social changes on the development of verbal expressions, and studied the development that occurred to pronouncement after the revelation of the Qur'an in the society of Mecca. The semantics of the Noble Qur'an, have developed in Medina.

Keywords: Semantic Change, Quran words, Linguistics, Significance development.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

تعد اللغة أهم وسائل الاتصال بين البشر، يُعبر فيها الفرد عن حاجاته ومشكلاته وأفكاره ومشاعره، كما تساعد على فهم من حوله. واللغة الإنسانية كائن حي، لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها، وهم من الأحياء، وهي لذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن، مثلما يتطور الكائن الحي ويتغير، وهي تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره، ويظهر أثر التطور المجتمعي على اللغة حيث تتطور ألفاظها كلما استجذت تغيرات اجتماعية أو ثقافية أو علمية في حياة المجتمع. والحال أنّ اللغة العربية قد تأثرت في مسيرتها تماشياً والمراحل التي مر بها المجتمع منذ ظهور الإسلام، فاكتسبت ألفاظاً وتراكيب ودلالات جديدة.

1. تأثير المتغيرات الاجتماعية على اللغة:

1.1 اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية:

المعروف أن اللغة وسيلة تكشف الملامح المميزة لكل مجتمع ولكل عصر ولكل مرحلة من مراحل تاريخه، كونها تحيا في أحضانه، وتستمد صفاتها منه، وتتطور بتطوره، فترقى برقيه، واللغة عنصر لوحدة المجتمع وهي الصلة الرابطة بين جيل وجيل، وتُعد مكوناً رئيساً لهوية الشعوب، وهي وعاء الفكر وأداة التعبير، ووسيلة التواصل بين الأفراد المجتمع، كما أنها تعتبر الناقل للثقافة وتقاليد المجتمع عبر الأجيال وكيفيات استعماله للغة إذ لا قيمة للأصوات والكلمات إذا لم تؤد رمزاً أو معنى بعينه يستعين به الإنسان أو المجتمع على تلبية حاجاته. ولم يكن ابن جني مخطئاً عندما عرّف اللغة بقوله «إنّ اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»⁽¹⁾ فقد وصفها بالاجتماعية كونها تنشأ في المجتمع وتحيا وتتطور فيه، ولا شك أن هذا المجتمع الذي يحتضنها يكون تأثيره واضحاً فيها، فاللغة تتأثر، لا محالة، بالبيئة التي توجد فيها كما تتأثر بالمستوى الثقافي والفكري للمجتمع، فكلما ظهرت متغيرات اجتماعية إلا ودفعت اللغة لمواكبتها.

2.1 سمات اللغة في المجتمع البدوي والمجتمع الحضري:

من سمات اللغة في المجتمع البدوي :

أ/ أنها محدودة الألفاظ والتراكيب والخيال، ليست مرنة ولا تتسع لكثير من فنون القول، كثيرة المفردات للتعبير عن المحسوسات، قليلة المفردات للتعبير عن المعاني المجردة.

ب/ كثيراً ما تخلو مدلولات الكلمات في المجتمع البدائي من الدقة ويكثر فيها اللبس والإيهام.

ج/ لا تعبر إلا عن ضروريات الحياة اليومية، لذلك كانت جملها قصيرة وروابطها قليلة.

أما اللغة في المجتمع المتحضر فهي متحضرة الألفاظ، مطردة القواعد، سهلة في نطقها خفيفة الوقع على السمع، فكل مجموعة إنسانية مهما صغرت لها لغتها الخاصة ولها ثروتها اللفظية التي تعكس خصائص الموضوعات التي يتناولها أعضاء هذه الجماعة.

والأكيد أن التطور اللغوي يرتبط بالتطور الذي يحدث في حياة الجماعة اللغوية سواء أكان هذا التطور على مستوى العقيدة أم الحياة الاجتماعية أم السياسية، إذ تتعرض اللغة للتطور المطرد في مختلف عناصر أصواتها وقواعدها ومنتها ودلالاتها شأنها في ذلك شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى، ولا يستطيع أحد من أفراد المجتمع وقف هذا التطور، أو جعل اللغة تجمد على وضع خاص. فاللغة تحيا في أحضان المجتمع وتستمد كيانها منه ومن عاداته وتقاليده وسلوك أفرادها، وتتطور بتطور هذا المجتمع فترقى برقيه، وكون المجتمع دائم التطور فاللغة عليها أن تسايره. فاللغة تميل إلى التغير وفقا لحاجة المجتمع الذي تعيش في أحضانه ملبية حاجات أبنائه ومتطلبات الناطقين بها لا سيما إذا كانت هذه المتطلبات تتعلق بالعقيدة.

وضمن هذا الإطار يورد ابن جني مجموعة من الأسباب يراها تدفع إلى تطور العربية ويؤكد أن اللغة تتطور عندما يرغب الناطقون بها في ترك ألفاظ يستثقلونها يقول: «اللغة تتطور نتيجة ميل المتكلمين بها إلى ترك ما يستثقل من الكلام»⁽²⁾ أما إذا سلطنا الضوء على علماء اللغة المحدثين، فإننا نجد أمثال علي عبد الواحد وافي الذي أرجع التطور اللغوي إلى عوامل كثيرة، ويذكر منها عوامل اجتماعية ونفسية وجغرافية كحضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها وعقائدها وثقافتها واتجاهاتها الفكرية ومناحي وجدانها ونزوعها وبيئتها الجغرافية.⁽³⁾

أما أولمان فيرى أن التطور اللغوي تفرضه ظروف غير خاضعة للأهواء أو رغبة المتكلمين بها يقول: «واللغة شأنها في ذلك شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى، عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها وأصواتها وقواعدها ومنتها ودلالاتها، وتطورها هذا لا يجري تبعاً للأهواء والمصادفات، أو وفقاً لإرادة الأفراد، وإنما يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة مطردة النتائج، وليس في قدرة الأفراد أن يوقفوا تطور لغة ما، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص، أو يسيروا بها في سبيل غير السبيل التي رسمتها لها سنن التطور الطبيعي مهما أجادوا وضع معجماتها، وتحديد ألفاظها ومدلولاتها، وضبط أصواتها وقواعدها، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال وتفلت من هذه القيود وتسير في السبيل

التي تريدها على السير فيها سنن التطور.»

3.1 مظاهر التطور اللغوي وأسبابه:

تبدو مظاهر التطور اللغوي جلية في نطق الأصوات وتبدل المعنى الدلالي، وتعود أسبابه إلى عوامل عضوية وصوتية ودلالية، إذ تتمثل العوامل العضوية في اختلاف أعضاء النطق التي تميز كل فرد عن غيره وكل جنس عما سواه، وتطور أعضاء النطق في الجيل اللاحق عن سابقه في الاستعداد والبنية، كما تتمثل فيما يطرأ على الصوت اللغوي من وهن أو حذف أو تفاعل مع ما يجاوره من أصوات أو تبدل في مواقعه، كما يعود التغير الدلالي أيضاً إلى أسباب بيئية وحضارية ونفسية واجتماعية وثقافية.

أحدث القرآن الكريم تحولاً كبيراً في أسلوب اللغة العربية، و نستطيع أن نفهم هذا التحول من مقارنة أسلوب القرآن مع ما وصلنا من الأدب الجاهلي. وأثر القرآن الكريم على اللغة العربية واضح، وإن دلالة اللفظ القرآني دلالة قوية تعبر عن المعنى بصورة كاملة تصور المقام والهدف المطلوب. فالملحوظ أنّ دلالة اللفظ القرآني تطورت بحسب تطور المجتمع العربي، «فالألفاظ ودلالاتها نمت بحسب انتقال مجتمع مكة الذي كان مجتمعاً بدوياً، فجاءت الدلالات بحسب المراحل التي مر بها هذا المجتمع الذي انتقل من الظلمات إلى النور، فجاءت الدلالات متدرجة بحسب تدرج تطور هذا المجتمع»⁽⁴⁾

وإذا كانت اللغة العربية الجاهلية حلقة من حلقات التطور والتغير، فإنها لم تكن بنفس الصورة التي رويت لنا منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها، فلو تأملنا هذه اللغة في ذلك الوقت الذي عاش فيه هود عليه السلام، ثم فترة قبيل الإسلام، لتبين لنا مستوى التغير الذي حدث للغة بين هاتين الفترتين، فالألفاظ المستخدمة كانت تنم عن بساطة التعبير وبساطة الفكر وعدم التكلف، وقد لا نجد هذه الألفاظ في فترة متقدمة من عمر العربية. فقد أخذت العربية في التطور لانتقالها من البادية إلى الحاضرة، فبعد أن كانت بقعة صحراوية يتمسك أهلها بمنطق آبائهم الفصيح، بدأت تنتقل بانتقال أهلها إلى مجتمع حضاري فتتغير الألسنة وتتطور تبعاً لذلك، واللغة العربية تشتمل على الكثير من ظواهر التطور اللغوي، وقد أشار علماء اللغة القدامى إلى هذه الظاهرة على غرار ما فعل ابن جني في كتابه الخصائص عندما ذكر أنّ «التطور اللغوي بدأ في لغة أهل الحضر مما يوضح أن انتقال الحياة من مرحلة إلى مرحلة أو الانتقال من بيئة إلى أخرى يظهر تأثيره في اللغة المنطوقة»⁽⁵⁾

شهدت ألفاظ القرآن في السور التي نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المدينة تطوراً دلاليّاً بحسب ثقافة ومجتمع المدينة التي هاجر إليها الرسول بعد ثلاث عشر سنة من بعثته، حيث كان مجتمع المدينة قد تهيأ وشهد تطوراً فكرياً ووجدانياً وثقافياً، فاكتملت دلالة ألفاظ القرآن معانٍ وأبعادٍ مختلفة عن تلك المكية، فعندما تستجد مستجدات في البيئة الاجتماعية أو غيرها، تظهر كلمات جديدة في قاموس الجماعات في هذه البيئة.

2. الدلالة في اللسانيات:

1.2 المستوى الدلالي أهم فروع اللغة:

ميز الله البشر باللغة التي بها يعبرون عن حاجاتهم، فباللغة يتحقق التواصل بين أفراد المجتمع. واللغة مجموعة رموز وإشارات تشكل أنظمة ومستويات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية. ويعد المستوى الدلالي أهم فرع من فروع اللغة، لذا يجدر بنا في مستهل هذا المبحث أن نعرف المعنى اللغوي لكلمة «دلالة»؛ يقول ابن فارس: «الدال واللام أصلان؛ أحدهما إبانة الشيء بأمانة تتعلمها، والآخر اضطراب في الشيء، فالأول قولهم: دلّك فلاناً على الطريق. والدليل الأمانة في الشيء وهو الدلالة والدلالة». ويقول الجوهري: «الدلالة في اللغة مصدر دلّ على الطريق دلالةً ودلالةً ودلولاً، في معنى أرشده» وهكذا عرف المعنى بأنه الإبانة والتوضيح والإرشاد، والمعنى يقصد به دلالة الشيء، دلّ عليه وإليه يدل دلالة، وتعني إبانة الشيء وإيضاحه.⁽⁶⁾

أما الدلالة في الاصطلاح فهي استلزام معرفة الشيء بشيء آخر، يعتبر الشيء الأول هو الدال والثاني هو المدلول، أي المفهوم الذي يتبادر للذهن لإيجاد مختلف التوضيحات بين الشكل والصورة، أو هي «كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر»، والدلالة تعني المعنى.

وقد عرف العلماء علم الدلالة بأنه علم دراسة المعنى والجوانب التي تسهم في تشكيله. يرى اللغويون أن هناك نوعين من الدلالة أحدهما ما سموه بالدلالة المركزية والآخر بالدلالة الهامشية، فقد عرف أحمد مختار عمر الدلالة المركزية بأنها «القدر المشترك من الدلالة الذي يفهمه ويعرفه أفراد المجتمع باللفظ، وهذا القدر يصل بهم إلى فهم هذا اللفظ. أما الهامشية فهي ظلال المعاني التي تختلف من فرد إلى آخر تبعاً لتجارب الأفراد وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم».⁽⁷⁾

تمثل الدراسات اللغوية الحديثة بمستوياتها الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية فتحاً جديداً في مجال دراسة النص اللغوي، معتمدة في ذلك على الرموز

الصوتية، والصيغ والتراكيب النحوية التي تؤدي إلى المعاني المتعددة التي تحملها تلك الألفاظ. من هنا يتضح لنا الدور الذي تقوم به هذه المستويات في خدمة المدلول العام للنص، ولا سيما أن الهدف الأول من الخطاب سواء كان مكتوباً أو منطوقاً، هو إيصال الرسائل اللغوية بحيث يتم فهمها ومعرفة المدلولات الجديدة التي تحملها تلك النصوص وخاصة أن هذه الألفاظ تتجاوز المعنى المعجمي إلى معانٍ جديدة تكتسبها من السياق اللغوي أو من البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها ذلك النص.»⁽⁸⁾ من هنا يتبين لنا الدور الريادي الذي يقوم به علم الدلالة في دراسة هذه الألفاظ التي تولد معانٍ جديدة بحكم استخدامها ومرورها بتجارب بشرية مختلفة إضافة إلى التنوع في تناول هذه الكلمات تبعاً لاختلاف الزمان والمكان.

2.2 أقسام الدلالة:

قسم اللغويون الدلالة إلى:

أ. دلالة صوتية تشير إليها بعض الأصوات، أي أن بعض الأصوات ترتبط بمعاني بذاتها، يقول ابن جني في (الخصم والقضم): «الخصم الشيء الطري، والقضم الشيء الصلب اليابس».⁽⁹⁾

ب. دلالة صرفية تنتج عن الصيغ والأبنيــــــــــــة. وهي دلالة الأوزان والصيغ المجردة.

ج. دلالة نحوية تنتج عن استخدام الألفاظ والصور الكلامية على المستوى التركيبي في الجمل المكتوبة أو المنطوقة.

د. دلالة اجتماعية ويقصد بها ما تدل عليه الكلمة عند أفراد المجتمع الذين يستخدمون تلك الكلمة. وهى نوع الدلالات التي يدور حولها بحثنا.

هـ. دلالة معجمية وهى تلك التي تشير إلى المعنى المعجى للكلمة.

3. التطور الدلالي لألفاظ القرآن الكريم:

1.3 معنى التَّطَوُّر:

إن مصطلح 'تطور' يشير إلى التغيُّر الذي يحدث للشيء عبر الزمن، وهو تغيُّر تدريجي يحدث في بيئة الكائنات الحية فيظهر في سلوكها ونمط حياتها، فينعكس ذلك في حياة المجتمع والعلاقات والقيم السائدة فيه، ولأدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا﴾ سورة نوح الآية 14، حيث تدل لفظة أطواراً على الأحوال التي يمر بها الخلق إلى أن يصير إنساناً كاملاً، والطور في القرآن إشارة إلى مراحل الانتقال والتدرج نحو التكامـل والنمو الذي يشير إليه مصطلح التطور.

والتطور الدلالي هو أحد جوانب التطور اللغوي، وميدانه الكلمات ومعانيها، إذ معاني الكلمات لا تستقر على حال، بل هي في تغير مستمر لا يتوقف، ولعل مراجعة المعاجم العربية تؤكد على هذا التطور وتبين أن معاني الكلمات متغيرة من عصر إلى عصر.

3.2 عوامل التطور الدلالي:

للتطور الدلالي عوامل مختلفة تؤدي إليه، منها ما هو عام؛ وهو الذي يطرأ على ألفاظ اللغة في مجتمع ما أثناء مسيرتها، والتطور الدلالي الخاص هو الذي ينشأ عن نقل الألفاظ من أصلها في القاموس اللغوي إلى استخدامها في المجال العلمي، فتصبح مصطلحات علمية تستخدم في المجالات العلمية المختلفة، والتطور الدلالي يظهر الهدف والمقصد الإلهي الذي أنزل القرآن الكريم من أجله.

فالتطور الاجتماعي والثقافي للمجتمعات الإنسانية يعد من الأسباب الخارجية التي تؤدي إلى انتقال الدلالة من المجال المحسوس إلى المجال المجرد نتيجة لتطور العقل الإنساني ورقبه، وينجم عن استعمال اللغة وتداولها، فقد «تضاف دلالات جديدة إلى ألفاظ قديمة نتيجة سوء الفهم مثلاً، أو أن تبلى ألفاظ أخرى فيصحبها بعض التغير في صورة تجعلها تشابه ألفاظاً أخرى فتدخل معها في دلالتها، فتختلط الدلالتان»⁽¹⁰⁾ هذا الأمر يعد سبباً من أسباب نشأة ظاهرة الاشتراك اللفظي. أو أن تهجر ألفاظ أخرى ويستعاض عنها بغيرها لتكون أقل وضوحاً في الدلالة على الأشياء التي تعبر عنها، تدل دلالة غير مباشرة على المعنى المراد، وهكذا.

وقد حدد الرازي أقسام الرصيد اللغوي للعربية، فرأى أن اللغة:⁽¹¹⁾

أ. إما قديمة موروثة بألفاظها ودلالاتها.

ب. وإما ألفاظ قديمة منحت دلالات جديدة بعد مجيء الإسلام، أي أنها أصابها التطور الدلالي فَعُمِّم معناها أو خُصِّص أو نُقِل إلى معنى آخر، وكانت من قبل مستعملة في دلالات أخرى.

ج. وإما ألفاظ جديدة في صيغها ودلالاتها، وهي من البنية الصرفية العربية نزل بها القرآن أو دل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم تكن تعرفها العرب قبل ذلك.

د. وإما ألفاظ أعجمية اقترضتها العرب من لغات الأمم الأخرى وعربتها، أي أنها صاغت على أبنيتها وأنشأتها على أوزانها فأصبحت من نسيج العربية ولم تعد تمت إلى أصولها القديمة بسبب.

4. أثر القرآن في التطور اللغوي:

بالنظر إلى التطور الذي حدث في مجتمع مكة بعد الإسلام، فقد سايره تطوراً في معاني ألفاظ القرآن، حيث كان المجتمع في مكة يعيش في قرية صغيرة تقع في واد جاف تحيط بها الجبال من كل جانب، ثم بدأ الناس في التوافد عليها والاستقرار بها في عصر النبي إبراهيم والنبي إسماعيل عليهما السلام، وذلك بعدما ترك النبي إبراهيم زوجته هاجر وابنه إسماعيل في هذا الوادي الصحراوي الجاف امتثالاً لأمر الله، وبقياً في الوادي حتى تفجر بئر زمزم، ثم وفدت بعد ذلك أولى القبائل التي سكنت مكة وهي قبيلة جرهم.

تُعد التغيرات الدينية أقوى مؤثر على اللغة، فعندما يشهد المجتمع تغييراً دينياً نجد أن اللغة تسير هذا التغير وتتأثر به ويظهر في قاموسها، فعندما جاء الإسلام وجاءت مفردات القرآن بدلالات واسعة، ظهر أثر القرآن في التغير الدلالي للعربية حيث نُقلت كثيرٌ من الألفاظ من دلالات كانت معروفة إلى دلالات جديدة.

إن أسباب التطور الدلالي لألفاظ القرآن الكريم ترتبط بخصوصية النص القرآني الذي أحدث تغييراً معرفياً لنسق الحياة الذي كان سائداً قبل الإسلام، فالدلالات الجديدة للألفاظ أظهرت سمة الحضارة الإسلامية، حيث تغيرت دلالاتها إلى دلالات أخرى تشير إلى اللغة بوصفها مظهراً حضارياً أراد الإسلام أن يؤسس له، حيث لم تقتصر هذه الدلالات على العادات والسلوكيات التي كانت تسود من قبل، وإنما أشرت لنقل الإسلام العرب من حياة اللهو والخمر والميسر، فأبطلت ألفاظاً ولم تعد من مستعملات المجتمع .

يُعد التطور الذي حدث لألفاظ العربية تطوراً دائماً لأنه أكسب اللفظ دلالة جديدة أصبحت حقيقة، ومن مثل هذا التطور نجد أن اللفظ القرآني يجمع بين اللفظ بمعناه المستخدم من قبل ولكن في سياق آخر بدلالاته الجديدة، مثال ذلك لفظ (الصلاة) التي أصبح لمعناها دلالة أخرى غير الدعاء، وهي العبادة المعروفة التي يشير إليها الآية ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ البقرة الآية 43.

ارتبط التطور الدلالي للفظ القرآني بسبب استعمال اللفظ في نظام مجتمعي وفكري جديد، فالتطور الذي حدث للمجتمع الإسلامي في كافة جوانبه تبعه تغيير في دلالات الألفاظ التي أصبحت تواكب هذا التغير الذي حدث للعقلية والسلوك المجتمعي الجديد، ولتوافق الاستبدال الذي طال المعتقدات والقوانين بمعتقدات جديدة، هذه الألفاظ تطورت وأصبحت لها دلالات جديدة تُعرّف المجتمع بأصول الدين والأحكام

الفقهية ولتعبير عن الثقافة الجديدة في المجتمع الإسلامي، فألفاظ (الوحي، التوحيد، الرسول، الحج) كانت العرب تعرفها، وكانت ضمن معجمها اللغوي «فتطورت في النص القرآني لتأخذ معنىً دلاليًا جديدًا يواكب التحول الفكري الذي حدث في المجتمع العربي المسلم»⁽¹²⁾

إن لتطور المجتمع المسلم اليد الطولى في تطور دلالة ألفاظ تتعلق بالعلاقة الزوجية وما يكره ذكره، فاستخدم بدلها مفردات كانت تستخدم في المجتمع دون حرج مثل (الغائط، المباشرة، الملامسة، الرفث)، حيث تطورت من معانيها الأصلية لتعطى دلالات جديدة بديلاً عن السابقة. فالغائط هو المطمئن من الأرض الواسعة، ثم أصبح يدل على قضاء حاجة الإنسان، يقول تعالى: ﴿أَوْجَاءُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ سورة النساء 43. مثل هذا الاستخدام يطلق عليه (التلطف في التعبير) ويعنى اختيار بعض الدلالات اللغوية التي تخضع لثقافة المجتمع ونمط تفكيره وبالتالي استبدال ألفاظ مستقبحة بأخرى مستحسنة.⁽¹³⁾

بالنظر إلى اعتبار الزمان الذي يصور حال المخاطبين والنظر إلى المقام، نجد أن البعد الزماني والمكاني مرتبطان حيث جاء اللفظ القرآني على وجه مخصوص يتصل بزمن نزول النص فاستبدلت كثيرٌ من الألفاظ لتدل على معاني أخرى بسبب التغير الذي حدث، فبعض الألفاظ انحطت دلالاتها والأخرى ارتفعت دلالاتها، وبما أن المجتمع المكي كان في مرحلة التكوين فكان يحتاج لخطاب خاص يؤسس لغرس معاني العقيدة ويرسخ مبادئها في قلوب أفراد ذاك المجتمع، وكان مجتمع المدينة يختلف عن مجتمع مكة إذ كان مؤهلاً لقيادة الدولة الإسلامية الوليدة. إن تصور الحالة النفسية والاجتماعية للمجتمع الإسلامي في عهده صلى الله عليه وسلم يعد أمراً مهماً، وذلك لمعرفة دلالة اللفظ من خلال معرفة المقام التخاطبي ومعرفة حال من تنزل عليهم آيات القرآن الكريم، وتصور بيئتهم العامة والمفاهيم التي كانت تسود مجتمعهم، وتصور الظرف الزماني و المكاني الذي نزلت فيه الآيات.

نتيجة هذا التغيير الفكري والعقدي نجد أولى آيات القرآن التي نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في بداية عهده بالرسالة تختلف في معانيها وأساليبها عن تلك التي نزلت في مرحلة تالية، فالمجتمع انتقل من مرحلة إلى مرحلة بها متغيرات، ولنا أن نتصور كيف كانت الحالة النفسية والاجتماعية للمجتمع إبان تلك المرحلة، وحال الذين نزلت عليهم الآيات القرآنية لتعليمهم وتربيتهم، وكيف كانت البيئة العامة والمفاهيم التي كانت تسود المجتمع. فالفترة التي نزل بها القرآن بمكة كانت تتطلب خطاباً يتوافق والقوم الذين كانوا يعيشون عهد الجاهلية.

4.1 السُّور المكيّة:

هي السور التي نزلت على محمّد عليه الصلاة والسلام في مكّة المكرّمة، قبيل هجرته إلى المدينة المنوّرة. تتّصف السور المكيّة بخصائص تميّزها عن السور المدنيّة.

تزخر السور المكيّة بميزات تتسّقق وطبيعة المجتمع البدوي حديث العهد بالدعوة للإسلام، حيث اتصفت السور المكيّة بعدد من الصفات نذكر منها:

أ. قصر ألفاظها وقوّتها، وإيجاز عباراتها وجملها، فقد كانت طبيعة العرب حينذاك تعجبها من الكلام الجمل القصار الموجزة الحاملة لإشارات دالة على معاني مقصودة. يقول عودة خلي: «كانت الآيات تنزل وفق الأسلوب المتداول من كلام بلغاء العرب وفصحائهم وخطباءهم والسائر من أمثالهم، إذ كان يعجبون بقصار الجمل المفصلة بتوازن، ويهتمون بالإيجاز الذي يكشف الذكاء دلالاته، والكنائيات الإشارية الدالة على معاني غير مدلول عليها ولا معبر عنها بألفاظ صريحة»⁽¹⁴⁾.

ب. اتسم الخطاب المكي بالتعريض ولم يكن يُسمّ المقصودين بالخطاب، وذلك لأن المخاطبين يتشابهون في نفسياتهم وتصوراتهم.

ج. الإشارة إلى تكذيب القرشيين للرسول الذي دعاهم إلى الإيمان برّبهم، وذكر الجزاء الذي لقيه السابقون جراء كفرهم وعدم تصديقهم لرسولهم، وتوجيه العظة للمخاطبين. فالسور المكيّة سريعة الحركة، أقرب إلى إثارة الفكر منها إلى إثارة الوجدان.

4.2 ملامح لغوية في السُّور المكيّة:

أ. تتميّز السور المكيّة بوجود كلمة «كلا»، فكل سورة فيها لفظ «كلا» فهي مكيّة. ب. تتميّز السور المكيّة بوجود «يا أيها الناس» فيها، وليس «يا أيها الذين آمنوا». ج. كل سورة في أولها حروف الهجاء ك«الم»، و«الر» ونحو ذلك فهي مكيّة سوى البقرة وآل عمران.

4.3 خصائص السُّور المدنيّة:

السور المدنيّة هي السور التي نزلت على محمد عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة وفي المدينة المنوّرة. حيث كان النسيج الاجتماعي بالمدينة يختلف عن مجتمع مكة، فقد كان يتكون من ثلاث طبقات تختلف فكراً ووجدانياً؛ (اليهود، المنافقون، المسلمون)، ولذلك «كان الأسلوب التخاطبي للآيات القرآن يتوافق والناحية النفسية والعقلية لهذا النسيج غير المتجانس، فجاءت دلالة الألفاظ بطوال السور تخاطب الكفار من اليهود والمنافقين متوافقة مع حالتهم وتحذر منهم، كما جاءت دلالة الألفاظ

التي تخاطب الصحابة الكرام الذين رسخت لديهم العقيدة الصحيحة، فجاء الخطاب يناسب مقام المخاطبين الذين وصلوا إلى مرحلة متقدمة من التربية والإعداد، ودلت الألفاظ إلى تشريع الأحكام والنظم والقوانين.⁽¹⁵⁾

أ. اهتم القرآن المدني بالسلوك الحضاري والتشريع النظامي للدولة الإسلامية الناشئة، فجاء يتوافق أسلوبه والنسيج الاجتماعي في المدينة المنورة الذي كان يتكون من ثلاث فئات كما ذكرنا، صار أسلوب العهد المدني يراعى طرائق تفكير البيئة المدنية وبخاصة اليهود (بنو النضير، بنو قينقاع، بنو قريظة) الذين يعرفون من الكتب السابقة طرائق البيانات التفصيلية في الجمل والفقرات، وهذا الأسلوب لم يكن له نظير في بيئة العهد المكي.

ب. السور المدنية حوت الإشارة إلى الجهاد وبيان أحكامه وقواعد التشريع الخاصة به، وذكر الأحكام المتعلقة بالحروب والغزوات والمعاهدات والصلح والغنائم والأسرى.

ج. بها تفاصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق، والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية.

د. مجادلة أهل الكتاب في عقائدهم، والتحدث عن المنافقين وكشف مواقفهم وأحوالهم.

4.4 ملامح لغوية في السور المدنية:

أ. الخطاب فيها كان دائما يبدأ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باستعمال ياء النداء مقترنة بآية.

ب. طول الآيات والسور وإطنابها، فالبيانات الدينية تجمع في آيات طوال مع التفصيل وبيان الجزئيات (لتفصيل العبادات والمعاملات لأن المخاطبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة).

ج. سهولة ألفاظها وخلوها من الغريب اللغوي.

د. الأسلوب الهادئ والحجة الداحضة عند مناقشة أهل الكتاب.

5. دراسة لغوية تطبيقية:

1.5 دراسة نموذج من السور المكية:

سورة العلق:

سورة العلق مكيّة بإجماع علماء التفسير، وقد ذهب أغلب المفسرين إلى أنها أول سورة نزلت من القرآن المكي. قال الشيرازي في التفسير الأمثل: «يذهب أكثر

المفسرين إلى أنها أول ما نزل من القرآن، إلا إن إجماع المفسرين واقع على أن أول ما نزل من القرآن هو الآيات الخمس الأولى منها، وهو ما يؤيده مضمون السورة - وهي أول ما نزل من القرآن، فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بالرسالة وأمره أن يقرأ فامتنع وقال: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ» فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى قَرَأَ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ سورة العلق الآية 1، إذ أن القراءة هي أساس للوصول إلى المعرفة، ولا بد أن تبدأ القراءة باسمه لأن الله هو الذي بدأ خلق الوجود كله وأن التقدير: اقرأ القرآن أو ما في معناه. حيث كان أمر تأسيس العقيدة لدى مجتمع مكة الأمر الأهم لدى الرسول صلى الله عليه وسلم وتأسيس عناصر البناء العقائدي لمجتمع بدائي ولأمة في بداية انتقالها من مجتمع يسود فيه ظلام الكفر والضلال إلى نور الهداية والإيمان، حيث كان من الأولى أن يتم إرساء قيم جديدة عبر عناصر تؤسس لهذه القيم.⁽¹⁶⁾

جاء الخطاب الأول من المولى عز وجل للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ثم حثه على الكتابة، فالله تعالى أكرم نبيه وعلمه بالقلم الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، والكتابة بالقلم من أهم وسائل طلب العلم وفي هذا بيان إلى أن الأساس الحضاري ممزوج بالأساس العقائدي.

إذا تأملنا البناء اللغوي لهذه الآيات التي تحت على العلم نلاحظ الآتي:

الآيات [1-5]: بدأت بالأمر الإلهي الداعي إلى القراءة، متصلاً ذلك ببداية نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الإخبار عن آيات الله سبحانه وتعالى في خلقه للإنسان، وتفضيل الله له بأن علمه بالقلم، في إشارة دقيقة إلى أهمية القراءة والكتابة في اكتساب العلم والمعرفة، ولكونها من الملكات التي اختص الله بها الإنسان وحده دون سائر خلقه.

الآيات [6-8]: أخبر الله تعالى نبيه أن الإنسان برغم ما أنعم به عليه مَيَّال للطغيان والجحود رغم كل ما توفرت له من هبا إلهية وإكرام رباني.

الآيات [9-19]: أخبرت بما ينتظر أولئك الصادقين عن طريق الهداية والمانعين لأعمال الخير من عقاب، وتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من بعده إلى عدم الالتفات لمثل هؤلاء، وأن عليه طاعة الله والتقرب إليه بالسجود.

نرى أن هناك تناسباً بين مقصد السورة وزمن نزولها بشكل دقيق للغاية، وذلك من حيث إنها افتتحت بأمر الله تعالى موجهاً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يحضه على القراءة والكتابة، كأساس يُمكن النبي من الامتثال لأمره سبحانه وتعالى والعمل بموجبه بحمل أعباء الرسالة الخاتمة، والسعي إلى تبليغها للناس كافة. كما أن

في السورة تثبتت للنبي صلى الله عليه وسلم بألاً يخشى معارضة الناس له، وأن عليه أن يعتصم بالله ويدعو إلى عبادته، وأن يلتزم بطاعته والتقرب إليه بالصلاة والسجود، وهي مقاصد ينبغي أن يسعى إلى تحقيقها كل المؤمنين أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وأن تسمية القرآن الكريم متصلة لفظاً ومعنى بالأمر الإلهي الذي افتتحت به السورة (اقرأ).

نلاحظ كذلك تكرار أصوات (اللام، الميم) ليتناسب المعنى مع حالة المجتمع آن ذاك، فجاءت الفاصلة متلائمة مع المعنى المقصود، حيث كان الجمع بين إيقاع الكلمة وما توحى به، فجاءت الكلمات (الأكرم، علم، القلم) متسقة مع المعاني المرادة، وهو ما يسمى في الدراسات اللغوية الحديثة (جو الألفاظ)، وهو الجو الذي توحى الألفاظ عند قراءتها، فالأصوات وموسيقى الكلمات والإيقاع المناسب للمعنى له تأثيره الخاص.

إن إيقاع الآيات جاء بالألف المقصورة التي تمثل صوت المد، وهو من الأصوات التي يترنم بها العرب في ذلك الوقت، «إذا ترنموا، فإنهم يلحقون الألف والياء والواو وما ينون وما لا ينون، لأنهم أرادوا مد الصوت، وأصوات المد تؤكد وحدة الإيقاع في السور القرآنية.» ولذا نجد فواصل هذه السورة تمثل إيقاعاً متوالياً (يطغى، استغنى، الرجعى، ينهى، صلى، الهدى، التقوى، تولى، يرى)، وصوت المد له تأثير سمعي بالغ يستميل القلب، فتلتحم الوحدة المعنوية مع وحدة الإيقاع المتمثل في أصوات المد التي تعد أضعف وألين الأصوات، وهي توافق المعاني السلبية التي عبرت عنها من طغيان وتمرد، وبذلك نجد للإيقاع الصوتي القرآني أثراً في المعنى الذي يدل عليه النص، فإيقاع الكلمات والجمل يوافق المعاني الجامعة التي تقصد إليها السور القرآنية.

الآيات من (6) إلى الآية (14) نجد فيها تنظيمات صوتية متعددة مست معظم المفردات في هذا الجزء من السورة، حيث انتقل إيقاع الصوت وانتهت مقاطع الآيات بحرف الألف المقصورة في ألفاظ (ليطغى)، (استغنى)، (الرجعى)، (ينهى)، (صلى)، (الهدى)، (التقوى)، (تولى)، (يرى)، مع حضور واضح لحرف الألف متآزراً مع حرف اللام والكاف والياء، وكان لها أداءً وظيفياً في إبراز الدلالة على المستوى الصوتي، مثل: (كلاً إن)، (أن رآه)، (إن إلى)، (أرأيت الذي)، (عبداً إذا)، (أرأيت إن كان)، (أو أمر)، (أرأيت إن كذب)، (ألم يعلم بأن الله)، لهذا اتسم هذا الجزء ببنية إيقاعية مختلفة تماماً عن البنية الإيقاعية للجزء السابق له من السورة، وهي بنية صوتية جاءت متناسبة كلياً لتدل على معاني الذكرى والاعتبار.

إن تكرار كلمة (أرأيت) لثلاث مرات له الدلالة واضحة على التنبيه والتذكير

بأخذ العظة والعبرة، فضلاً عن التنويع التبادلي في استخدام كلمة «إن» و «بأن» للجزم تارة والتوكيد تارة أخرى، دون أي إخلال في البنية الإيقاعية، أو في دلالتها الصوتية على متن هذا الجزء من السورة؛ الذي برز في——ه الإيقاع الموسيقي بوضوح جلي في المستويات الصوتية الخمسة: مخارج الحروف في الكلمة الواحدة، تناسق الإيقاع بين كلمات المقطع، اتجاهات المد في الكلمات، واتجاهات المد في نهاية الفاصلة، وحرف الفاصلة نفسها.

نرى انتقالاً صوتياً جديداً في الجزء الثالث والأخير من السورة، حيث تنتهي فواصل المقاطع بصوت (التاء) متماهيا مع الهاء عند الوقف في ألفاظ (بالناصيه)، (خاطئه)، (ناديه)، (الزبانيه)، مع تكرار كلمة (ناصية) على الوزن الصوتي نفسه لتكرار كلمتي (خلق)، (علم) في أول السورة؛ وهذا ما ساهم في اكساب الجو الدلالي للسورة على المستوى الصوتي ثراءً وجمالاً قيماً لا ينفصل عن روحانية حدث نزول الوحي والرهبة التي حصلت للنبي صلى الله عليه وسلم عند تلقيه.

نرى أن دلالات المستوى الصوتي لسورة العلق قد ساهمت كثيراً في بيان المعاني التي عبرت عنها ألفاظها وجملها، لاسيما من حيث كان للعناصر الصوتية فيها أثراً كبيراً في إمالة النفس إلى تقبل المفاهيم والأغراض التي حملتها، وتحقيق الدافعية لدى المخاطب للتفاعل مع المعنى والدلالة.

للصرف دور بالغ الأهمية في حقل الدراسات الدلالية، إذ تنوعت الأفعال في سورة العلق في ثلاثة أنواع: فعل الأمر، الفعل الماضي، والفعل المضارع. فقد بدأت السورة بفعل أمر وهو «اقرأ»، وهذا الفعل بطبيعته هو بنية صرفية فعلية، فعل أمر من المجرد الثلاثي المهموز «قرأ»، على وزن (أفعل) من باب (فعل- يَفعل). كما اشتملت السورة على فعلي أمر في نهايتها، وهما: «اسجد واقترب». يُعرف فعل الأمر بأنه: كل فعل يُطلب به حصول شيء في الزمن المستقبلي بعد زمن التكلم، وهو أصل في نفسه اشتق من المصدر ابتداء. وتبدو دلالة فعل الأمر بأنه دعوة للمخاطب لفعل أمر لم يكن يفعله من قبل، أو دعوة خالي الذهن لشيء لم يكن يدرك كنهه، وهي دعوة تلاءم هؤلاء المخاطبين.

أما الفعل الماضي فيعرف بأنه ما دل على حدوث شيء قبل زمن المتكلم. وقد حوت السورة عدداً من الأفعال الماضية جميعها أفعال دالة على أحداث وقعت في الماضي سواء بالنسبة لزمن نزول الآيات، أو لأي زمان يكون بعده لأنها متعلقة بوقائع ماضية، ولم يقترن بها ما يخرجها عن دلالة وضعها الأول، فهي ماضية صيغة وزمنياً،

ولعل تكثيف هذا النوع من الأفعال عائد إلى طبيعة الموضوعات التي تعالجها السورة، كما أنها تعطي أفقاً دلاليّاً شمولياً لصورة يمكن أن تنطبق على أي زمن.

نرى تناسباً عدديّاً دقيقاً للغاية في عدد أفعال الماضي وتوزيعها كمياً بين ثلاثة أطراف؛ الله سبحانه وتعالى، والإنسان الطاغي والجاحد، والعبد الطائع، وهو تناسب وتوزيع يوحى باختزال نعم الله الكثيرة إلى نعمتيّ الخلق والتعليم باعتبارهما إطاراً لكل النعم الأخرى، بينما دلت الزيادة في عدد أفعال الماضي الدالة على الطغيان، على ما كان عليه وما يمكن أن يكون عليه حال الإنسان في زمن نزول السورة، وفي أي زمن.

والفعل المضارع هو ما دل على حدوث شيء في زمن التكلم أو بعده، إذ تظهر صور الفعل المضارع فيما يتعلق بحال الإنسان المتكبر الجاحد، وهذا ما يوحى بشيوع الكفر والطغيان في زمن نزول الوحى، في مقابل حلم الخالق عز وجل، متصلاً ذلك بوعيده وتهديده من جهة، وبأمره لعبده الطائع بالآلا يطيع الطغاة والجاحدين من جهة أخرى.

وكانت الدلالة النحوية حاضرة، إنّ حصول التفاعل بين الوظائف النحوية والمفردات المختارة لشغلها في بناء الجملة الواحدة مع تتأزر القرائن اللفظية والمعنوية ودلالات السياق المختلفة، وطريقة التركيب اللغوي للنحو، كل ذلك كان له النصيب الأكبر في بلوغ المعنى الدلالي العام وفهمه وتحليله إلى عناصره تحليلاً دقيقاً. وتجيء الدلالة التركيبية من خلال العلاقات النحوية بين الكلمات التي تتخذ منها موقفاً معيناً في الجملة بحسب قوانين اللغة.

والملاحظ أنّ التركيب الاستفهامي كان أكثر وروداً في البنية التركيبية لسورة العلق، والاستفهام هو أسلوب لغوي أساسه الطلب، والهمزة وهي أصل أدوات الاستفهام، وترد لطلب التصور وهو تعيين المفرد، ويكون الجواب بالتعيين، ولطلب التصديق، وهو تعيين النسبة ويكون الجواب معها افتراضاً بـ «نعم» أو «لا»، وهي تدخل على الإثبات وعلى النفي، غير أن للاستفهام في سورة العلق وظيفته تتجاوز طلب الفهم، وتتجه نحو التقرير والإنكار وذلك لأن فهم المعاني النحوية وإدراكها متوقف على الوظيفة التركيبية التي تؤديها الأداة الاستفهامية في موقعها وسياقها التركيبي، فكان للاستفهام بالهمزة بتكرار لفظة «أرأيت» واستخدام صيغة «أَلَمْ يَغْلَمْ» مع الجزم لغرض النفي، وهي هنا تؤدي أيضاً وظيفة الإنكار.

إن استخدام حرف الردع «كلاً» لثلاث مرات في السورة له أثره البالغ في اكساب البنية التركيبية القدرة الكاملة على إبراز الدلالة المتصلة بالأمر الإلهي إلى النبي صلى الله

عليه وسلم بالقراءة والكتابة، وبالسجود والاقتراب، ومجانبة الطغاة وعدم الامتثال للجاحدين الذين يهونون عن عبادة الله والتقرب إليه، باعتباره الموضوع العام للسورة.

وإذا جئنا إلى الدلالة المعجمية التي هي « المعنى الذي يستقل به اللفظ في المعاجم اللغوية أو أثناء التخاطب، أو هي المعنى المصدري الذي يستدعيه اللفظ، وقد عرفها دي سوسير : De Saussure بأنها «نتاج اجتماعي للملكة اللغوية ومجموعة حالات عرفية ضرورية يكفها المجتمع ليسمح لهذه الملكات الفردية بالعمل»⁽¹⁷⁾ إن الدلالات المعجمية التي حملتها ألفاظ سورة العلق توحى بالموضوعات الكبرى للوحي وللکیفیه التي اختارها للتركيب اللغوية لخطابه القرآني، وهذا ما جعلها تتسم بطابع من الثراء ابتداءً من معنى القراءة بطابعه الشمولي. وظاهر معنى قوله تعالى «اقرأ» هو الأمر بتلقي ما يوحى إليه ملك الوحي من القرآن الكريم، وهذا ما يؤيده السياق من أن هذه السورة — وبالأخص آياتها الخمس الأولى — هي أول ما نزل من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، أي أن الأمر يعنى إلزامه بقراءة القرآن. إن تكرار أمر القراءة على النبي صلى الله عليه وسلم هو تأكيد للظاهرة القرآنية وتثبيت لها في نفسه. واستخدام لفظ «ربك» جاء مناسباً في السياق سواء من حيث معناه المعجمي أو دلالاته السياقية، وفيه يلاحظ التركيز على مسألة الربوبية.

إن دلالة سورة العلق في المستوى المعجمي جاءت متسقة تماماً وكلياً مع الدلالات التي حملتها السورة في المستويات الدلالية الثلاثة السابقة: الصوتي، الصرفي، التركيبي، كما أعطى السياق دلالات ساهمت في إبراز المعنى العام للسورة، والكشف عن اتساقها الدلالي الذي يناسب حالة المجتمع وثقافة أهله في تلك المرحلة، كما تعطي تصويراً دقيقاً للموضوع المراد.

2.5 دراسة نموذج من السور المدنية:

قال تعالى: ﴿الْم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ، فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. نقف عند قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فلم يقل (القرآن) بل (الكتاب)، فالكتاب أصبح معلوماً لهؤلاء المخاطبين بأنه القرآن* ثم وصفه لهؤلاء المتقين ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، ثم تقديم وصف لهؤلاء الذين آمنوا بالله وبالغيب، ثم أقاموا الصلاة، نجد التدرج في درجة إيمان هؤلاء المتقين — من الإيمان ثم إقامة الصلاة والإنفاق إلى اليقين بالآخرة — ثم وصفهم بالمفلحين وهي المرحلة

الأخيرة التي يصل إليها هؤلاء، ولذلك نرى أن هذه المرحلة لا يصلها إلا من وصل درجة من الإيمان. يظهر لنا أن النص اللغوي عمل على تصوير الفكر الإنساني وهو ينتقل من معاني الكفر إلى معاني الإسلام عبر سلسلة من المفردات التي تصور صفاته وأفعاله.

وقد شهد النص اللغوي تطوراً دلاليّاً «تمثل في تلك الصفات الإسلامية الجديدة التي ارتبطت بالعقيدة الإسلامية (المتقين - المنفقين - المؤمنين - مقيمي الصلاة)، وظهرت ألفاظ تذكر الصفات التي تحلى بها أهل المدينة المنورة في هذه الفترة من عمر الدعوة». والتطور ظهر في أسلوب الخطاب واستعمال مفردات تفيد نبذهم لصفات الجاهلية (منافقين)، ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿الْمُفْسِدُونَ﴾، ﴿مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، فضلاً عن الألفاظ التي تعبر عن صفات الإسلام الجديدة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

1.5.2 المشتقات وأثرها في الدلالة:

للمشتقات دورٌ واضحٌ في إفادة المعنى وما يترتب على ذلك من أثر لها في تجلية عناصر التصوير الفني في آيات القرآن. سنتناول اسم الفاعل وأثره في إيضاح دلالة ألفاظ الآيات من (1-30).

1.1.5.2 اسم الفاعل:

اخترنا من المشتقات اسم الفاعل وذلك بسبب وروده في معظم مقامات مخاطبة أهل المدينة وهم الأنصار الذين ناصروا الرسول وصدقوه صلى الله عليه وسلم، فمعظم الآيات التي تم اختيارها تختتم باسم الفاعل دلالة على تثبيت المعنى المراد من الآية.

﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(المتقين): اسم فاعل مفرد «المتقي» من فعل اتقى الخماسي، أي الذين صاروا متقين باستفادتهم من هدي الكتاب، أو المراد بالهدى الثبات والدوام عليه، أو أراد الفريقين واقتصر على المتقين لأنهم الفائزون بمنافع الكتاب.

(المفلحون): جمع (المفلح)، اسم فاعل من (أفلح) الرباعي، والمفلح هنا الذي كان على هدى من ربه .

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ 8.

(مؤمنين): جمع (مؤمن) اسم فاعل من آمن الرباعي، جاء مقترنا بالباء للدلالة على عدم إيمانه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾. 11

(مصلحون): جمع (مصلح) اسم فاعل من أصلح، جاء اسم الفاعل بعد «إنما نحن مصلحون» في إشارة على كذب هؤلاء المفسدين.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. 12

(مفسدون): جمع (المفسد) وهو اسم فاعل من أفسد، جاء اسم الفاعل بعد «ألا إنهم هم» في عبارة حاسمة تؤكد إفسادهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. 13

(السفهاء): جمع سفيه، صفة مشبهة من فعل سفه يسفه، حيث أن معنى الاستفهام هنا الإنكار.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾. 14

(شياطين): جمع شيطان، اسم جامد على وزن فيعال سمي بذلك لمخالفة أمر الله لأن الفعل شطن يشطن باب نظر بمعنى خالفه عن نيته ووجهه. ووزن شياطين فياعيل.

(مستهزئون): جمع مستهزئ، اسم فاعل من استهزأ السداسي، الاستهزاء ضرب من العبث واللغو، وهما لا يليقان بالله تعالى وهو منزّه عنهما ولكنه سمي جزاءه باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة إما للمشكلة في اللفظ أو المقارنة في الوجود أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزئ بهم.

نتائج البحث:

بعد معالجتنا للموضوع، انتهينا إلى النتائج التالية:

— أن اللفظ لا يدل في السياق إلا على معنى واحد، فالألفاظ قد تدل على أكثر من معنى خارج السياق، لكنها لا تدل في السياق إلا على المعنى الذي يريده المتكلم ويفهمه المخاطب تساعده في ذلك القرائن السياقية.

— إن لغة القرآن الكريم ذات طابع دلالي خاص، وإن تطبيقات البحث كشفت اختيار

القرآن اللفظ المناسب في الموقع المناسب للمجتمع المناسب .
— أساليب الخطاب المتبعة في القرآن الكريم تنسجم وتتوافق مع حال المخاطب، وموضوع الخطاب، وغرضه، مكانه، زمانه، وأسبابه.
— إن المعاني التي عبر عنها القرآن اكتسبت دلالات جديدة من خلال السياق اللغوي، وبحسب البيئة الاجتماعية والجو العام النص.
— يتبين دور علم الدلالة في إظهار المعاني الجديدة للكلمات التي تولد بحكم استخدامها في التجارب البشرية، ويتنوع استخدام هذه الكلمات تبعاً لاختلاف الزمان و المكان وثقافة وفكر المجتمع.

العوامش:

- (1) ابن جني، عثمان أبو الفتح، الخصائص، ص: تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية للطباعة والنشر، ط 2، ص: 32.
- (2) أحمد بن زكريا بن فارس، الصحاح في فقه اللغة و سنن العربية، نشر محمد علي بيضون، ط 1، 1997م، ص: 155.
- (3) إبراهيم أنيس، الأصوات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 4، 1971م، ص: 39.
- (4) أولمان ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، طبعة 1975، ص: 155.
- (5) ابن جني، السابق الصفحة نفسها.
- (6) ابن فارس، السابق، ص: 157.
- (7) أحمد عمر مختار، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط 7، 2009، ص: 123.
- (8) ابن جني، السابق، ص: 130.
- (9) السابق، ص: 33.
- (10) أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، طبعة 1381هـ، ص: 43.
- (11) رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومنهاج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي القاهرة، ط 3، 1979، ص: 4.
- (12) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، 1985م، ص: 123.
- (13) السيد خليل، دراسات في القرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، 1997، ص: 221.
- (14) عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، 1973، ص: 55.

- (15) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتيقان في علوم القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، د.ت، ص: 89.
- (16) رمضان عبد التواب، السابق، ص: 49.
- (17) أحمد عمر مختار، السابق، ص: 11.
- (18) الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط1، 1990، ص: 14.

